

الواقع المعيشي لتأخر سن زواج النساء بقسنطينة

فريال عباس

تتمحور هذه المداخلة حول موضوع رسالة دكتوراه في الأنثروبولوجيا قيد الانجاز، والموسومة بـ " مقارنة أنثروبولوجية لعزوبة النساء بقسنطينة"¹، تتناول الواقع المعيشي للنساء اللواتي تأخر سن زواجهن، من خلال تتبع مسار حياتهن، عبر دراسة ميدانية بمدينة قسنطينة، مبنية على المقابلات نصف الموجهة والملاحظة. النساء اللواتي يشكلن موضوع الدراسة ينتمين إلى شرائح اجتماعية وثقافية مختلفة ويحتلن مكانات مختلفة داخل الفضاء الاجتماعي.

تعرف المؤسسة الزواجية في المجتمع الجزائري تغيرات عديدة وعميقة، حيث نسجل تأخرا مستمرا ومتزايدا في سن الزواج. رغم أن الزواج يعد مظهرا خارجيا ورمزا للنجاح الاجتماعي وبالرغم من أنه ينظر لغير المتزوجين نظرة سلبية في المجتمع الجزائري خاصة بعد تخطي سن الثلاثين، نسبة هامة من النساء والرجال العانسين في تزايد مستمر. حيث تفيد الإحصائيات أنه في سنة 2006 قدر معدل سن الزواج في الجزائر عند النساء بـ 29.9 سنة مقابل 18 سنة، عام 1966، أما معدل سن الزواج عند الرجال فقد انتقل من سن الـ 24 عام 1966 إلى سن الـ 33.5 عام 2006²، بمعنى امتداد فترة العزوبة بـ 12 سنة للنساء و9.5 سنوات بالنسبة للرجال. نسجل أيضا تقلصا في فارق السن بين الزوجين، تراجع في الزواج بين الأقارب، انخفاض في الخصوبة، وارتفاعا هاما في نسب الطلاق. لم تعد العنوسة* مقتصرة على فئة محددة أو طبقة اجتماعية معينة، بل أصبحت ظاهرة مستشرية في كافة الأوساط الاجتماعية. مما يدفعنا للتساؤل: لماذا هذا الارتفاع المستمر في سن الزواج وبالتالي زيادة في نسبة العنوسة وبخاصة عند النساء؟ هل هن عازفات عن الزواج يارادتهن، أم أنهن مجبرات على ذلك؟ كيف تعيشن هذا الوضع: كمساحة من الحرية، أم على العكس تحت الضغط؟

هل ارتفاع نسبة العزوبة هي نتيجة لامتناع الرجال عن خطبة النساء نتيجة للظروف الاقتصادية السيئة، إذ غالبا ما تربط ظاهرة العزوبة بأسباب سوسيو اقتصادية وثقافية كالبطالة والسكن بالنسبة للرجل والتعليم والخروج للعمل بالنسبة للمرأة، من جهة أخرى تربط الظاهرة بتغير في نمط العيش وطرق التفكير ونظرة المجتمع لمؤسسة الزواج ومكانة الفرد وخاصة المرأة داخل العائلة والمجتمع. هل هي رغبة من النساء في التخطيط لمستقبلهن الزواجي بعيدا عن القيود العائلية، أم أن عزوبة النساء هو ثمن (ضريبة) تدفعها النساء (والمجتمع)،

¹ رسالة الدكتوراه مسجلة بجامعة وهران، إشراف د. نورية بن غبريط-رمعون، تحت عنوان:

« Approche anthropologique du célibat des femmes à Constantine »

² MICS3: Ministère de la Santé, de la Population et de la Réforme Hospitalière, Office National des Statistiques, UNICEF, Algérie 2006, résultats de l'enquête nationale à indicateurs multiples, Rapport Préliminaire suivi de la situation des enfants et des femmes, Juillet 2007, p 55.

* مصطلح العنوسة في الدراسة ليس حكما سلبيا أو معياريا بل هو مقابل للمصطلح الفرنسي *célibat*، والمقصود منه التعبير عن الوضع الاجتماعي لتأخر سن الزواج بالنسبة للجنسين.

نتيجة لانخراط النساء في الفضاء العام؟ هل هي تعبير عن أزمة في الزواج؟ أم هي نتاج تبدل في معايير اختيار الشريك الزوجي؟ أم هي مؤشر لوجود بدائل عن الزواج؟ هل تدعونا هذه الظاهرة إلى إعادة الاعتبار لمؤسسة الزواج؟

سنحاول في هذه المداخلة انطلاقاً من معطيات جمعناها من الواقع المعيشي خلال الدراسة الميدانية، تناول الأسباب التي أدت إلى هذه الظاهرة، من وجهة نظر المجتمع وكذا من وجهة نظر المعنيات بالأمر أي حسب تحليلهن الخاص، هاته الأسباب التي لا يمكن اختزالها في سبب بعينه لأن الأسباب عديدة ومتشابكة، فظاهرة تأخر سن زواج النساء إحدى أهم مؤشرات لفهم التغيرات الاجتماعية، إنها تعد أحد الزوايا الهامة والخاصة لملاحظة ما يحدث داخل المؤسسة الزوجية وعليه ما يحدث داخل المؤسسة العائلية بل وداخل المجتمع.

التحولات العميقة التي عرفها المجتمع الجزائري، على مختلف الأصعدة الاجتماعية الثقافية الاقتصادية وحتى السياسية أحدثت تغيرات في أنماط العيش وعلى مستوى الذهنيات وأثرت في العلاقات الاجتماعية. هاته التغيرات لم تستثن العائلة الجزائرية، البنية الأساسية للمجتمع، بالتأثير على أحد أهم ركائزها، الزواج محدثة قطيعة مع التصور التقليدي للمؤسسة الزوجية (تغير في شكله، أسلوب الاختيار، سن الزوج، المراسيم، السكن... الخ).

كل المعطيات المتوفرة والتي بحوزتنا: التعدادات الوطنية للسكن والسكان منذ 1966 لغاية 1998، وحتى آخر تعداد لسنة 2008، التحقيق الوطني حول الخصوبة لسنة 1986³، تحقيق اليد العاملة 1989⁴، المجلس الوطني الاقتصادي والاجتماعي⁵، التحقيق الوطني حول صحة العائلة الجزائرية 2002⁶، و تقرير MICS3 2006، كلها تؤكد تغيير جذري في المؤسسة الزوجية، تغير يدفعنا للحدوث عن ثورة زوجية، تبرز معالمها في الارتفاع الهام ومستمر في معدل السن الأول للزواج، متبوع بانخفاض هام لمؤشرات الخصوبة، تقلص في فارق العمر بين الزوجين وتقاربه، تراجعاً في الزواج بين الأقارب وتعدد الزوجات، بالمقابل ارتفاع هام في نسب الطلاق.

أهم ما كان يميز الزواج في المجتمع الجزائري منذ حوالي ثلاثين سنة الفارطة، أنه كان زواجا مبكرا وعلى الأخص بالنسبة للنساء، نسجل في العشريات الأخيرة تأخر محسوس وهام في سن أول زواج، ونسب العازبات والعزاب في تزايد مستمر، حيث تفيد الإحصائيات أنه سنة 2006 قدر معدل سن الزواج في الجزائر عند النساء بـ 29.9 سنة مقابل 18 سنة، عام 1966، أما معدل سن الزواج عند الرجال فقد انتقل من سن الـ 24 عام 1966 إلى سن الـ 33.5 عام 2006⁷، بمعنى امتداد فترة العزوبة بـ 12 سنة للنساء و 9.5 سنوات. مما يدفعنا للتساؤل لماذا يتأخر الشباب في الزواج؟

³ Enquête algérienne sur la fécondité 1986

⁴ Enquête main d'œuvre 1989

⁵ Conseil national économique et social (CNES)

⁶ Enquête algérienne sur la santé de la famille 2002

⁷ MICS3: Ministère de la Santé, de la Population et de la Réforme Hospitalière, Office National des Statistiques, UNICEF, Algérie 2006, résultats de l'enquête nationale à indicateurs multiples, Rapport Préliminaire suivi de la situation des enfants et des femmes, Juillet 2007, p 55.

وبالرغم من أن العزوبة، ظاهرة اجتماعية عرفتھا المجتمعات البشرية والأديان السماوية قديما بأشكال وصيغ مختلفة، إلا أنها أخذت أبعادا جديدة خلال العشريّات الأخيرة، فلا أحد ينكر أن العزاب من الجنسين كانوا موجودين قبلا لكن أول ما يثير الانتباه اليوم هو العدد الهام والمتزايد لهذه الفئة من المجتمع.

فقد تضاعفت نسبة العزاب في الشريحة العمرية في مجتمعنا بسبع مرات سنة 2002 عما كانت عليه سنة 1966، أما نسبة العزاب في الشريحة العمرية 25-29 سنة فقد تضاعفت بإحدى عشرة مرة عما كانت عليه⁸.

الملاحظة الأساسية التي يمكن تسجيلها أيضا، هو أن تأخر سن الزواج الأول لدى المرأة أصبح ظاهرة ملموسة حتى في الوسط الريفي، حيث بلغ معدل سن الزواج للمرأة في الأوساط الريفية 29.7 سنة 2006، مقابل 30 سنة للمرأة في الوسط الحضري⁹، أي هناك تقارب ملموس بين الوسطين.

ارتفاع نسب العزوبة لا يبدو كحالة مؤقتة أو عابرة، بل يبرز كظاهرة اجتماعية تمس جميع مناطق الوطن دون تمييز. إنها تمتد من شرق البلاد نحو غربها ومن شمالها نحو جنوبها ومن المدن نحو القرى. لكن المجتمع ينظر إلى العزوبة على أنها فترة أو فصل زمني أو وضع "مؤقت" أو حالة انتظار لحين وقوع الزواج. هذا الوضع المؤقت يعاش بطرق مختلفة حسب الانتماء الجنسي، والثقافي. فوضع العزوبة بالنسبة للمرأة في البلاد العربية يختلف عنه في البلدان الغربية، وحتى بالبلد الواحد فالوضعية تختلف بين المدينة والريف، وكذا بين المرأة والرجل، فعزوبة الرجل ظاهرة أكثر تقبلا اجتماعيا منها عند المرأة، فليس من الطبيعي أن تبقى الفتاة من دون زواج، فعزوبة النساء خاصة ليست مرادفا لنجاح اجتماعي فما هي إلا مرحلة انتقالية، ومآل كل فتاة الزواج آجلا كان ذلك أم عاجلا، وحبذا لو حدث في أقرب الآجال والتي تحدد غالبا اليوم بنهاية الدراسة مباشرة.

فما هو السن الأمثل للزواج؟ يمكن التأكيد على أنه رغم وجود تحديد قانوني له، لكنه لا يأخذ بمقياس في المجتمع، كما أن ليس هناك تحديد علمي مرجعي له، وإنما يحدد وفقا للظروف الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فهو سن اجتماعي، وعليه فلا يوجد أيضا تحديد دقيق للسن الذي يمكن من خلاله الحكم على فرد ما أنه تجاوزته، إلا بالعودة إلى المجتمع، لكن علماء الديموغرافيا يحددون سن الـ 50 بسن العزوبة النهائية. الجدير بالذكر أن هناك اختلال ما بين السن الأنسب للزواج الذي يرغب به الشباب وبين الواقع، فعند سؤال النساء عن السن الذي يروونه مناسبا للزواج، أجمعن أنه يتراوح بين 21-25 سنة، مع الإشارة أنه كلما ارتفع المستوى التعليمي للمستجويات ارتفع السن المناسب معها¹⁰، وعن سؤالهن عن السن المناسب للزواج بالنسبة للرجال أجبن بـ 29 سنة، أما الرجال فاعتبرن سن 21 الأمثل بالنسبة للنساء والـ 27 فيما يخص الرجال.

لكل مجتمع صفة يطلقها على المرأة التي لم تتزوج، عانس، بايرة نسبة للأرض البور التي فسدت ولم تعد صالحة للزراعة، مسكينة، شايبة، وغيرها من المسميات المستهجنة والجارحة لكل فتاة تعير بها، فالمجتمع لا يعترف بوضع العزوبة إلا من خلال نظرة سلبية له، حيث ينظر إليهن كمهددات للوضع الاجتماعي بل وكنقيض للمرأة الكاملة "الزوجة والأم" إنهن أنصاف نساء.

معنى العنوسة :

⁸ Ouadah-Bedidi Zahia et Saadi Nouredine, Algérie : Femmes et familles entre droit et réalités, p12

⁹ Voir MICS3, 2006.

¹⁰ Enquête algérienne sur la santé de la famille 2002, p139.

علينا " الوقوف عند كلمة شوهت لكثرة ما حملوها من آثام وأوزار متوهمة وموروثة " ¹¹ فالكثيرين يتفاعلون مع الكلمة وأصدائها الموروثة دون أن يحاولوا الوقوف عندها بالدراسة، فإننا لا نزال رهائن مفاهيم خاطئة موروثة نقوم بالاستناد إليها بإطلاق أحكام خبط عشواء دون محاولة إخضاعها للتحليل بغية الوقوف على أسبابها.

ورد في القاموس المحيط للفيروزبادي أن العانس هي "البت البالغة التي لم تتزوج [والرجل الذي لم يتزوج]، جمعها عوانس وعُنس وعُنُس وعُنوس"؛ وأيضاً، العانس هو "الجمل الثمين"، كما أن العانس هي "الناقة الثمينة". وأيضاً يقال: "عنست الجارية، أي طال مكثها عند أهلها بعد إدراكها [بلوغها] حتى خرجت من عداد الأبقار ولم تتزوج قط." فالقاموس المحيط أطلق هذا اللفظ على المرأة كما على الرجل؛ وقال ابن المنظور في تعريفه للعنوسة "الانس من الرجال والنساء هو الذي يبقى زماناً بعد أن يدرك ولا يتزوج" وأكثر ما يستعمل في النساء يقال عنست المرأة فهي عانس، وعنست فهي معنسة إذا كبرت وعجزت في بيت أبيها ¹² لكنه على الرغم أن لفظ العنوسة يطلق على النساء والرجال معاً، مثله مثل لفظ العزوبة لكن جرت العادة على الحديث عن عنوسة النساء فقط، وهذه ملاحظة جديرة بالاهتمام.

ورغم هذه النظرة المتشائمة والتي غالباً ما تحمل النساء أنفسهن سبب عدم زواجهن، نسب النسوة العازبات في تزايد مستمر، فكيف يمكن تفسير هذا التناقص في مجتمع لا يعترف فيه بالمرأة إلا بأدوارها الاجتماعية التقليدية كزوجة أو أم؟

إذا ما ذهبنا للتفتيش عن أسباب ارتفاع هذه المعدلات، نجد أن العديد من الدراسات تناولت موضوع تأخر سن الزواج في المجتمع، كما كان محور كثير من النقاشات وحوارات المحللين والباحثين الاجتماعيين، ويذهب أغلب الدارسين على أن هناك معطيات كان لها دوراً حاسماً في تراجع سن الزواج، في مقدمتها انخراط المرأة في التعليم وفي سوق العمل المأجور.

إذ قدم تعليم المرأة كأحد أهم عوامل التغير السوسيو ديموغرافي والعائلي. فطبقاً لدراسة جاك فالان وزهية وداح بديدي ¹³، تميم تدريس الفتيات لعب دوراً محورياً. ليس لأن طول مدة الدراسة أخر سن الزواج فحسب، بل خاصة أن التعليم ولد لديهن طموحات جديدة وفتح آفاق لتحقيقها من خلال فتح مجال العمل، وإعطاءهن فرصة ليكون لهن موارد من الكسب.

ابتداء من سنوات التسعينيات، ليس مسألة تأخر سن الزواج فقط ما أثار اهتمام الدارسين، ولكن ظاهرة عزوبة النساء على وجه التحديد بدأت تثير اهتمام الباحثين الجزائريين. حيث تجمع الدراسات أن المجتمع الجزائري شهد تقدماً كبيراً للنساء في الجامعات مقارنة بالرجال لكن حظوظ المتفوقات منهن في الزواج تبقى أقل، بل أصبحت العزوبة في أوساط الجامعات أمراً مألوفاً. ولعلها ضريبة النجاح والتفوق التي تدفعها المرأة في المجتمع. حيث انطلقت إيمان حاي ¹⁴ في دراسة قامت بها حول النساء الجامعيات العازبات، شملت 400 امرأة حاصلة على شهادة جامعية، من فرضيتين أساسيتين، الأولى مفادها أن ظاهرة العزوبة ناتجة هي عقاب أو إقصاء اجتماعي والثانية أن الظاهرة هي ناتجة عن تأخر سن الزواج والذي يترجم تغيير في استراتيجيات الزواج، وانتهت الدراسة على أنه كلما ارتفع مستوى التعليم كلما ازدادت نسب العزوبة عند النساء. ¹⁵

¹¹ صادر كارين، 1996، العنوسة مساحة أنثوية، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، سوريا، ص 19.

¹²

¹³ Vallin, Jacques et Ouadah-Bedidi, Zahia; 2003, « l'écart d'âge entre conjoints en Algérie depuis 66 et disparité régionales ».

¹⁴ Hayef Imane, 1993, « Le célibat des femmes en Algérie », In *Etre marginal au Maghreb: Textes réunis par Fanny Colonna avec zakya daoud* Paris: CNRS, 352 p.

¹⁵ Hayef Imane, 1993, Idem, P 252.

أما الباحث الاجتماعي ناصر جابي¹⁶ الذي اهتم هو الآخر بعزوبة النساء ذوات المستوى الجامعي، فقد فسر الظاهرة بانتقال ديموغرافي سريع، مع امتداد فترة الدراسة وارتفاع مستوى تعليم الفتيات، حيث يعتقد أن عزوبتهن إرادية. ويتحدث عن إقصاء زواحي ضحيته النساء على شكل عقاب اجتماعي. فالرجل الجزائري لطالما أبدى تخوفا من النساء اللواتي تابعن دراسات عليا.

عادل فوزي يتحدث عن أزمة في المؤسسة الزوجية من خلال دراسات عديدة قام بها حول الأسرة الجزائرية والزواج خاصة¹⁷، ويؤكد أنه رغم أن العزوبة تمس النساء الحاصلات على شهادات عليا بنسب كبيرة إلا أن هذه الظاهرة امتدت في المجتمع وباتت تمس كل الشرائح الاجتماعية والتعليمية¹⁸.

في حين أن زهية بديدي التي استندت إلى أرقام إحصائية وعلى التحليل الكارتوغرافي لمجمل الـ48 ولاية تؤكد أن "الظاهرة تمس المدن الكبرى لكنها أيضا تشمل المناطق الريفية وجميع المناطق الجزائرية"¹⁹، وترى أن "هذا الارتفاع المدهش للعزوبة مرتبط من ناحية بعناصر التمدن الايجابية كالتعليم ومرتبطة بمظاهر سلبية كالبطالة والفقر وأزمة السكن، ومن جهة أخرى بتغير نمط التفكير وتصور الزواج ومكانة الفرد والمرأة في العائلة والمجتمع"²⁰.

كما أن الظروف المعيشية التي يعيشها الشاب (البطالة، أزمة السكن، وارتفاع تكاليف الزواج في ظل غلاء المعيشة شكلت أهم محاور النقاش حول العوامل، السوسيو اقتصادية التي تقف أمام إقبال الشاب على الزواج.

استوقفني تكرار هذه الأسباب في أكثر من دراسة، للتساؤل، لماذا يعتبر العامل الاقتصادي هو المسؤول الأول عن ارتفاع معدلات العزوبة، حقيقة أن الصعوبات الاقتصادية واقعية ولا أحد يستطيع نفيها، وهو التفسير الذي غالبا ما نسمعه على لسان الشباب لتفسير تأخر زواجهم، في حين نجد العديد من العزاب مكتفين ماديا؟ بالنسبة لعمل المرأة فالمرأة لم تخرج حديثا إلى سوق العمل، فهناك مئات الزوجات ممن خرجن إلى سوق العمل وأسسن أسرة سعيدة.

الفتيات من جهتهن تتحدثن عن عدم تقدم الرجل المناسب لخطبتهن ورغبتهم في مواصلة التعليم، حقيقة أن الدراسة فسحت المجال لزواج متأخر لكن كيف نفسر أن نفس السلوكيات ظهرت عند الفئات التي لم يكن لها حظ وافر من التعليم، أو ذوات التعليم المحدود. ألا يجب الحديث عن رفض شبابنا اليوم الزواج التقليدي والمدير من قبل الأهل، وهنا تطرح مسألة في غاية الأهمية، الاختيار الزوجي وكل ما يترتب عنه، فكيف وأين يجد شبابنا الشريك المناسب خارج دوائر التقليدية للزواج وما هي قواعد اللعبة الزوجية اليوم؟

علينا بالبحث في الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة، من خلال ربطها بالمعايير التي باتت تعتمد في عملية اختيار الشريك الزوجي، علينا التساؤل عن محددات الاختيار اليوم، فتنامي هذه الظاهرة يجسد منحى جديد تأخذ المؤسسة الزوجية من أجل تحديد شروط العلاقة بين الزوجين والذي يختلف عما كان عليه في السابق، وما نلمسه اليوم من تغيير في معايير اختيار الشريك الزوجي وانتقاله من

¹⁶ Hammadi Souhila., Les Algériennes se marient au-delà de 32 ans, AFP, Liberté, 23 décembre 2006.

¹⁷ Adel Faouzi, 1995, « Femmes et mariage », in *Actes de l'atelier: femmes et développement*, Alger, 1994, éd CRASC-Oran, p. p.65-74. et, Adel Faouzi, 1996, « Formation du lieu conjugal et nouveaux modèles familiaux en Algérie », in: *Femmes, culture et société au Maghreb, tome 1 : Culture, femmes et famille*, sous la dir. De R. Bourqia, M. Charad, N. Gallagher, Ed. Afrique-Orient, p. p.139-155.

¹⁸ Adel.f, 1996, Ibid, P 152,

¹⁹ Ouadah-Bedidi Zahia 2005, « Avoir 30 ans et être encore célibataire: une catégorie émergente en Algérie », in *Autrepart*, N° 34-2005, p.29-50.

²⁰ Ouadah- Bedidi, Zahia, 2005, Ibid.

قرار الجماعة إلى قرار الفرد، ترجمه تلك النزعة نحو الفردية التي بدأت تظهر معالمها في مجتمعنا اليوم، إذا هل يمكننا القول أن أزمة الزواج المتمثلة في تأخر سنه، تعتبر محاولة للتغلب من القيود الاجتماعية التي تفرضها مؤسسة الزواج والاتجاه نحو التفتيش عن نوع آخر من العلاقة بين الشريكين بعيدا عن هذه القيود؟

هذا ما نحاول تناوله من خلال رسالة الدكتوراه قيد الانجاز، فمختلف الدراسات التي تناولت الموضوع على أهميتها، تعكس واقعا اجتماعيا يتخبط في أزمة زواج، لكنها لا تخبرنا عن واقع العزوبة عند مختلف الشرائح الاجتماعية وفي مختلف المستويات التعليمية. كيف تعيش هذه الفئة المحرومة من الزواج ومن الأمومة داخل المجتمع، هل تعيش فرادى في إطار الجماعة، أم تحاول أن تجد لها مكانة داخلها، كيف ينظر إليها المجتمع اليوم؟ ومن هن النساء العازبات اليوم؟ هل اخترن العزوبة عن طواعية، أم هن مجبرات على ذلك؟

لن أجب عن كل هذه التساؤلات في هذه الورقة، لكن سأقدم ملاحظات أو قراءة أولية لدراسة ميدانية لا تزال طور الإعداد، هذه الدراسة قائمة على المقابلات نصف الموجهة، أنجزت بمدينة قسنطينة ومست بلدياتها المختلفة (زيغود يوسف، ديدوش مراد، عين اعبيد، الخروب، أولاد رحمون، بن باديس)، شملت الدراسة 25 امرأة تتراوح أعمارهن بين 27 و51 سنة، هن نساء ذوات مستويات اجتماعية وتعليمية مختلفة، منهن الجامعيات ومن بينهن من أكملن الدراسات العليا، ومنهن من توقفن عند التعليم الثانوي أو المتوسط أو حتى الابتدائي. منهن من تعمل أو باحثة عن وظيفة ومنهن مأكثات بالبيت، حيث نجد أستاذات جامعيات، مهندسات، سكرتيرات، خياطة، حلاقة، عاملة نظافة، البعض يعمل بصورة دائمة وأخرى بصفة مؤقتة في إطار عقود تشغيل الشباب.

كثيرا ما ارتبطت صورة المرأة غير المتزوجة في مجتمعنا بتلك الصورة السلبية، ومما ساعد على تكريسها أن سائل الإعلام المرئية منها خصوصا والمسموعة وحتى في القصص والأدبيات والمخيال الشعبي يُظهر المرأة غير المتزوجة بمظهر سلبي مثير للنفور، فهي إما قبيحة المنظر، لا تعتني بمظهرها، تغار من المتزوجات تعاني من اضطرابات نفسية، عالة على الآخرين مثيرة للشفقة، أو تتدخل فيما لا يعينها، أو أنها مسترجلة، لكن الواقع الاجتماعي شيء مختلف تماما، فالنساء اللواتي تخطين العمر الذي حدده المجتمع، هن نساء جميلات، مثقفات، عاملات، حساسات، باختصار نساء عاديات لا يعانين لا عقد ولا نقائص.

أشكال العزوبة:

تبين لنا من خلال القراءات المختلفة حول الموضوع والدراسة الميدانية التي أجريتها أن العزوبة أشكال، يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع: عزوبة إجبارية قسرية، عزوبة اختيارية (طوعية)، وعزوبة اضطرابية.

– النوع الأول: عزوبة إجبارية قسرية، أين يكون الفرد ذكرا و أنثى خلالها راغبا في تحقيق الحياة الزوجية لكنه لا يستطيع تحقيق ذلك، لأسباب قهرية خارجة عن إرادته، كمرض عضال، أو كعدم حصول المرأة على أي عرض للزواج مثلا.

– عزوبة اختيارية، أين يكون الفرد عازفا بمحض إرادته عن الزواج لأسباب منها عدم الرغبة في تضيق حريته أو عدم قناعته بأهمية الزواج. وهناك بعض النساء إخترن العزوبة بإرادتهن لأسباب إنسانية أخلاقية، هي التفرغ لرعاية أم مريضة أو والد مريض، ومن أجل تربية الاخوة بعد وفاة الأم، أو أنها المعيل الوحيد للأسرة .

– أما النوع الثالث فهو عزوبة اضطرارية *célibat par défaut* هي عزوبة غير إرادية تكسوها مسحة تبدو معها وكأنها إرادية، أو عزوبة اختيارية تحمل في طياتها عنوسة قسرية، يبقى الفرد خلالها في انتظار وقوع الزواج، الذي يعد أمر يرغب به، لكن ظروفه لم تتح له تلك الفرصة، كالاتقاء بالشريك المناسب (من أرادني لم أرده ومن أرده لم يردني)، وغالبية حالات الدراسة تندرج تحت هذا النوع الثالث.

فغالبية النساء، لا تختزن بمحظ إرادتهن وضعية العزوبة، فلا واحدة من النساء اللواتي قابلتهن ترفض فكرة الزواج، ولا ترغب به البتة، لكنهن في ذات الوقت لسن في هذا الوضع قسرا. في الواقع إنهن في حالة ليست لا اختيارية ولا قسرية، إنها نتاج الاثنين معا، لكنه واقع تعيشن من خلاله وضعيات صعبة على مختلف الأصعدة، الاجتماعية الاقتصادية، وحتى المهنية والمعنوية. فالعزوبة ليس وضع يعيش داخل المجتمع فحسب وإنما هو أيضا حالة يعيشها الفرد مع ذاته، لكنها لا تعاش حتما ودائما تحت وطأة السلبية أو الإحساس الدائم والمستمر بالنقص.

فما هي الظروف إذن التي دفعت هؤلاء النساء إلى أن تبقى في وضع العزوبة ولا تنتقلن إلى الزواج، وتتحمّلن هذا الوضع، ما رد فعلهن اتجاه الصعوبات الاجتماعية اللواتي تواجهن وكيف تواجهن نظرة الآخرين إليهن؟ باختصار كيف تعيشن عزوبتهن، وكيف تنظرن إلى المستقبل؟

تبين لنا من خلال الاستجابات التي أجريناها أن الأجوبة أخذت اتجاهات مختلفة، ويبدو أنها نتاج عوامل مختلفة ومتداخلة، وتحكمت فيها أسباب عديدة منها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

العزوبة أفضل من زواج سيء *plutôt célibataires que mal mariées*

يبدو من خلال الأجوبة أن النساء لا تقبلن بشراكة غير متكافئة لا تحققن المرجو فيها من الزواج حسب رأيهن، فالفرص المتوفرة أمامهن لا تتطابق أو تتماشى مع صورة الشئ أو الزواج الذي ترغبن في تحقيقه، بمعنى أن الشريك المناسب غير متوفر فعدم تقدم خاطب مناسب، تتوافق صفاته مع معنى الزواج كسكينة وإشباع على المستويين العاطفي والاجتماعي، وقد كان أول سبب قدمته أكثر من نصف المستجوبات لتفسير وضعيتهن، وهن غير مستعدات للتخلي عن ما تؤمن به عما هو الزواج، من أجل أن تحمّلن لافته متزوجة. أهم ملاحظة سجلناها خلال الدراسة الميدانية، أن المشروع الزواجي كان دائم الحضور في حياة المبحوثات، رغم أن أهمية حضوره تتفاوت من حالة لأخرى، فمنهن من تلقين عروضاً للزواج، ومنهن من كن في الماضي على علاقة بشاب بقصد الزواج، ومنهن من هن على علاقة حاليا بشاب وهما بصدد دراسة الموضوع معا. فالرغبة بالحياة الزوجية قائمة، لكن صورة الزواج والشريك هي التي تغيرت، وشكل الحياة الزوجية ونموذجها تطور، فهن رافضات من يتقدم لهن ولا يرى فيهن سوى صورة الزوجة التقليدية مربية الأطفال ومدبرة المنزل، ولا تردن زواجا بمفهومه السلطوي، أنهن تردن من يقصدهن لذاتهن، ومن يشاركنهن حياتهن وتشاركه حياته، فالزواج بالنسبة مهم، بل وتنظرن إليه كمشروع أو تحقيق مشروع حياتي، لكنهن لا ترغبن بالزواج من أجل الزواج، أو كي تتخلصن من النظرة السلبية في المجتمع، أو لقب عانس، لكن فشل الزيجات وضعف العلاقات الأسرية أو هشاشة الحياة الزوجية لمن حولهن، وما يرونه من التجارب الزوجية لأقاربهن أو أصدقاءهن أو الأصداء التي تصلهن تدفعهن للتفكير ألف مرة قبل خوض المغامرة، إنهن لا ترغبن بالفشل أبدا في

زواجهن. وغالبية المستجوبات تقارن وضعهن كعازبات بوضع الأزواج من حولهن والمشاكل التي يتخبطون فيها، وتفضلن وضعهن على زواج ينتهي بطلاق، خصوصا وأن نظرة المجتمع للمطلقة أشد قسوة من العازبة.

تناقص دور الأسرة في عملية الاختيار للزواج وانعدام فرص وأماكن اللقاء

من جهة أخرى، المعطيات التي جمعناها، تدل على رغبة المبحوثات في تسيير مشروع زواجهن، وأن تكون لهن الكلمة الأخيرة في هذا المشروع الحياتي، لكن في ذات الوقت عليهن أن ترضين رغبات الأهل، فالزواج كنظام اجتماعي يكفل وجود علاقة دائمة بين رجل وامرأة، لا يتحدد فقط برغبات الشخصين بل تحدده معايير المجتمع، فعليهن عدم تجاوز الحدود الشرعية أو الاجتماعية. فالتغير على طرأ على مفهوم الزواج لم يمسه أسلوبه وحسب بل مس نظامه إذ توسع نطاق اختيار الزواج من الداخلي الضيق ومن القرابة إلى الخارجي من أصدقاء ومعارف وزملاء.

"لم تعد عملية اختيار الشريك الزوجي تحدد من قبل الوالدين باعتبارهما يمثلان المرجع القيمي والثقافي والمادي الواجب احترامه وإطاعته من قبل الأبناء كما في السابق، بل أخذنا نشهد بروز وتصادد النزعة الفردية على حساب العضوية في الجماعة الأسرية، والاستقلالية الفردية على حساب التماهي مع هذه الجماعة، مما يتيح للفرد تكوين هويته الخاصة وبالتالي تحديد مسار حياته بنفسه"²¹ في ذات الوقت لم يستطع الشباب اليوم السيطرة التامة على المشروع الزوجي "لم يعد هناك دورا واضحا للشباب في مجال الزواج خاصة وأن الأسرة تخلت عن وظيفتها الترويجية بما في ذلك مسؤولياتها وواجباتها في هذا المجال وما يدعم هذا ويؤكد تدخلها الذي أصبح قائما على أساس النصح والتوجيه فقط أي التدخل الشكلي بدلا من المساعدة الفعلية وكذلك اختفاء ظاهرة التعاون الذي يقتضيه سير مشروع الزواج"²²

وبالرغم من الاتساع الظاهر لمجالات التعارف المتاحة بين الشباب (الجامعات، ميادين العمل...)، فالمبحوثات تعبرن عن صعوبة حقيقية في التعارف والتقاء أشخاص تجمعهم أشياء مشتركة، فيبدو أنه التقاء شريك الحياة في مدينة كقسنطينة أمر صعب، وهذا عامل مهم جدا من أجل تسهيل عملية الزواج، أو ما يعرفه المختصون في الديموغرافيا بـ"دوائر الزواج". فقد أصبح الفضاء ضيقا أمام التعارف بين الجنسين لضعف اللحمة الجبرية والقرابية بين الأفراد وانشغالهم بالعمل والتعليم، كما انخفضت نسبة التزاور وأصبحت مقتصرة على الواجبات الرسمية (وفاة، مرض، زواج، ...). ورغم وجود طرق حديثة ومختلفة للتعارف، هناك متغيرات عديدة تلعب دورا هاما في الحد من إمكانية التعارف، فمن الشباب من يخضع لضغوطات اجتماعية خاصة بالنساء، فمن الفتيات من يتفادى هذا النوع من التعارف واللقاء، أو يضعون علاقاتهم ضمن حدود لا يؤدي بها التعارف إلى مرحلة بناء أسرة.

هنا لا بد من الإشارة إلى نقطة جدية بالذكر، أن التطور جعل من مجتمعاتنا مزيجا متناقضا بين موروث يحدد قيمنا ويعيش في عقولنا وبين حداثة و انفتاح لا مناص من قبوله والاعتراف به، فالمجتمع الذي من شأنه خلق فرص التعارف واللقاء بين الجنسين يمنع ما يبدو وكأنه خارج عن المألوف، لكنه في ذات الوقت فشل في إيجاد بدائل أو آليات مقبولة للتعارف والمواعدة في كثير من الأحيان.

²¹ عجاج زينة العريضي، 2007، الطلاق والعنوسة وتبديل معايير اختيار الشريك الزوجي، دبلوم الدراسات العليا في علم اجتماع العائلة، بيروت الجامعة اللبنانية، ص: 12

²² لبيديري مليكة، 2005، الزواج والشباب الجزائري إلى أين؟... تقديم: مصطفى بوتفوشنت، دار المعرفة، ص: 130.

وعندما نتحدث عن الاختيار، فالزواج لا يكون بقرار من المرأة بل بقرار من الرجل، الذي عندما يحسم أمره يقرر الارتباط بفتاة معينة و ما عليها هي سوى انتظاره لحين أخذ قراره، والذي ربما قد يأتي لكن هناك احتمال آخر أنه قد لا يأتي.

وهنا يجب الحديث عن أهمية الانتظار في حياتهن، فالمهلة الممنوحة للانتظار قصيرة ومساحة الاختيار محدودة، في حين أن كلاهما أكثر اتساعا بالنسبة للرجل لأن الرجل يظل شابا في نظر المجتمع وما السنوات المضافة لشبابه سوى نضج واتزان، هذه النظرة المجتمعية مستقاة من الطبيعة البيولوجية والتركيبية الفيزيولوجية لكل منهما، والتي تمدد القدرة على الإنجاب حتى بعد الستينات، وبما أن الرجل لا يعيبه إلا جيبه في مجتمعنا، فلا غرابة أن يتقدم ابن الخمسين من بنت العشرين، لكثرة العروض المتوفرة أمامه²³، فحتى الشاب الذي خائنه ظروفه المادية لإكمال نصف دينه فإنه عندما يتهيأ ماديا في أغلب الأحيان لا يتجه في اختياره لشريكة حياته نحو من تماثله في السن بل الأصغر منه، في حين أن المرأة عندما يزداد سنها تقل حظوظها في إكمال الزواج، فقيمتها في السوق الزوجية مرتبطة بقدرتها على الإنجاب، وعليه فمسيرها الزوجي يتحدد خلال هذه الفترة، وإن تزوجت فإما ترضى بأرمل له أطفال عليها تربيته، أو برجل متزوج أو مطلق أو له وضع خاص، لذا نجد أن نسب العازبات بعد سن الأربعين ترتفع في ما تبدأ بالانخفاض عند الرجال، مما يحدث خللا بين العرض والطلب.

بين نقص الإمكانيات.. والهروب من المسؤولية

فشل العلاقات العاطفية وعدم الثقة في الجنس الآخر أيضا له تأثير على تأخير سن الزواج، حيث تقول المستجوبات أن هدفن من إقامة علاقة بشكل عام الزواج بينما أصبح الرجل اليوم يتهرب من مسؤولية الزواج وتحمل أعباء أسرة، ليس لظروف اقتصادية فقط، بل وتؤكد بعض المستجوبات أنهن على استعداد لبناء حياتهن مع شخص واع وعلى خلق، وعلى استعداد لتقاسم أعباء الزواج. بل لأنه أصبح اليوم قادرا على إشباع رغباته العاطفية وحتى الجنسية خارج إطار الزواج ومسؤولياته، فهو غير مستعد للتضحية بحريته. فالانفتاح الثقافي كالانترنت وانتشار القنوات الفضائية، جعل شبابنا ينساق وراء القيم والمبادئ الغربية، وقلل شغفهم بالزواج و تزعزعت معايير اختيار الزوجة والمواصفات التي يجب أن تتوفر فيها، كما أن وجود بدائل غير شرعية للتنفيس عن الشباب وانتشار أنواع أخرى من "الزيجات"؛ مثل الزواج بالفاخرة أو الزواج العرفي دفعه للهروب منه.

تغيير أنساق القيم لدى الأفراد

النساء المستجوبات لا تحملن عائلاتهن أبدا مسألة عدم زواجهن، وبعض المستجوبات أخبرني بأنه في بعض الحالات لم تكن العائلة على علم بوجود مشروع زواجي في حياتهن، لكنهن في ذات الوقت تحملن الرجال وضعهن، عديدات من تحدثن عن عدم تفهم الرجال لوضع المرأة وعدم ثقتهن بهم، رفضهن لعلاقات خارج الزواج، ورفضهن أيضا لوضع زوجة ثانية. لكن يبدو أن أولويات المرأة قد تغيرت اليوم، فلم يعد الزواج فقط وبأي ثمن من أولوياتها بل التعليم والعمل واختيار شريك حياتها الذي يناسبها من حيث المستوى الثقافي، ومن حيث الوضع الاجتماعي والمهني، وميلها لتحقيق استقلالها المادي والمعنوي. لم يعد مفهوم الزواج كأفضل مؤسسة اجتماعية لتحقيق الذات بل بات العمل يشاركه ذلك، وترى بعض المبحوثات أن العمل أضمن من زواج قد ينتهي بطلاق.

بل يبدو أيضا أن المستوى التعليمي والاستقلالية المادية يلعبان دورا هاما في تضيق حدود اختيار الشريك لسببين أساسيين:

²³ صادر كارين، المرجع السابق، ص 56-57.

- صورة الرجل المناسب تتغير مع الوقت، فمع التعليم والعمل أصبحت النساء أكثر وعيا بحريتهن واستقلالهن وورغباتهن وقيمتهم، حينئذ يكون من الصعب جدا أن تتخلى عن كل هذا مقابل وضع اجتماعي عن طريق الزواج، أي التخلي مرة واحدة عن كل ما وصلن إليه من أجل حمل لقب زوجة فلان.

- المستوى التعليمي واحتلال مناصب عمل عليا، دفع بالرجال العزوف عن الزواج بالمرأة المتعلمة لتجاوزها السن المحدد من قبلهم للزواج، حيث يفضل الفتيات الصغيرات، والغاية من هذا الارتباط أن المتعلمة أكثر وعيا وبالتالي متاعبها كثيرة، أما الصغيرة في السن فمن السهل السيطرة عليها، فخوفه من الزواج بمن هي أعلى مرتبة منه دال على خوفه على فقدان مكانته ودوره السلطوي داخل الأسرة.

الجدير بالذكر أن المستوى التعليمي كمحدد للاختيار للزواج مهم بالنسبة للبعض من الجامعيات وذلك ليسود التفاهم داخل الأسرة ومنهن من لا تراه بهذا القدر من الأهمية، فهن تفرق بين المستوى التعليمي والمستوى الثقافي.

لكن في ظل المعطيات التي أوجدتها التغيرات الاقتصادية، برزت قيم جديدة لدى الشباب لم تكن سائدة في وقت مضى من بينها أن فناة أحلام الشباب اليوم، هي الفتاة العاملة لتساندهم في مصاريف الحياة، فعمل المرأة الذي كان ينظر إليه كعائق للزواج أصبح عند البعض شرطا أساسيا. والشرط الشائع اليوم هو أنه يفضلها مدرسة، حيث راتبها معقول وإجازتها طويلة، فهو يريد لها عاملة يمكنها التوفيق بين الحياة العملية والحياة الزوجية، فعلى الرغم من تقبله لعمل المرأة، لكن هذا لا يعنى تقبله أن يكون لها مشروع أو مستقبل مهني.

موقف العائلة والمحيط الاجتماعي من العزوبة: بين التقبل والرفض

ردود فعل اتجاه العزوبة النسوية تختلف ما بين العائلة والمحيط الاجتماعي. جاءت الأجوبة متطابقة فيما يخص ردود فعل العائلة، فهناك تقبل لهن داخل عائلاتهن، وهم لا يحكمهن عليهن كما يفعل المجتمع. لكن مما لا شك فيه أن الوالدين، الأم خاصة يرغبون بزواجهن مما يشكل ضغطا معنويا، فحسب المسجوبات الوالدين أيضا معنيان بعزوبة ابنتهما ومطالبان اجتماعيا بتزويجها، فتزويج البنات في سن محدد أو تزويج البنات عموما يشعر الآباء بالفخر والارتياح .

كما أن ردود فعل الأقارب صارت أكثر تقبلا، بما أن عدد العازبين والعازبات في تزايد، فقد صار وضع العزوبة في سن الثلاثين أقل إثارة للخوف، فلا أحد في منأى أن تمسه الظاهرة!

تقول المبحوثات أنهن تتقبلن وضعهن وأنهن تعشن حياتهن كما استطعن رغم إحساسهن بالوحدة والحاجة العاطفية، فهو "قدر" و"مكتوب" لكن المجتمع هو الأكثر عدم تقبلا لهن ولوضعهن. فرغم محاولتهن للتعايش، إلا أن المجتمع ما يفتأ أن يذكرهن بأن شيئا ما ينقصهن، فالأسئلة التي تواجههن من المحيطين بهم كثيرة، فهناك من يسألهن مباشرة عن سبب عدم زواجهن، ثم إن دعوات المحيطات والمحيطين بها أيضا يرجعنهن إلى أرض الواقع إن حاولت إحداهن تناسي الأمر (ربي يزوجك نشاء الله، ربي يرزقك، ربي يسترك، ويبعثلك ولد الحلال). ردود الفعل مزيج بين الشفقة والتهمك أو السخرية، فغالبا ما تواجه العازبات بالانتقاد وتأتي التعليقات التي توجه لها وكأنها هي المسؤولة الوحيدة عن عدم زواجهن، فهن سبب في وضعهن من خلال سلوكهن، فهناك من تواجههن تهمة الغرور، ومنهم من يحاول التوسط لهن من أجل إيجاد عريس، ومنهم من يتحاشى تناول موضوع الزواج أمامهن بداعي الخوف على مشاعرهن، وكلها ردود فعل جارحة.

ردود فعل المستجوبات تختلف فهناك من لا تعرن اهتماما لما يقال عنهن، لكنهن في ذات الوقت تعتبرن ردود فعل المجتمع مجحفة في حقهن، تؤكد المبحوثات أنهن لن ترضخن ولن تتزوجن من أجل التخلص من المصطلح *بايرة*، ولن تغيرن أسلوب حياتهن. إن المجتمع الذي يلوم هؤلاء النساء غالبا ما يتناسى دورهن في الأسرة، فقد أصبحن حلقة أساسية في الأسرة اليوم، فهن السند المادي والمعنوي لها.

حالة العزوبة، أفرزت عند البعض الآخر إحساس بعدم الأهمية والنفع لذاتهن ولمجتمعهن، إحساسهن بالفشل دفعهم إلى القيام بأنشطة من أجل الفوز باستحقاق من المجتمع إما عن طريق مساعدة الأهل، الاعتناء وتربية أبناء الإخوة، الاهتمام بالوالدين، أو البحث عن عمل أو إبداء الرغبة في مواصلة الدراسة، لإنقاص الشعور بالذنب. إحساس البعض منهن بالعجز وعدم قدرتهن للخروج من وضعهن دفع بالبعض الآخر اللجوء إلى الدين للاحتماء به.

تعيش غالبية المبحوثات مع عائلتهن الأبوية، في بيوت آبائهن عدا ثلاثة، اثنتين تعيشن بسكنهن الخاص لظروف العمل والثالثة تعيش بمفردها بعد وفاة والديها وزواج الإخوة، رغم أن اثنتين أخريين تمتلكن سكنا خاصا، واثنين مسجلات بمشاريع للحصول على سكن تساهمي لكنهن تفضلن العيش مع الأهل تحت السقف الأسري، إذ يبدو أن علاقة مع العائلة مهمة جدا في حياتهن ومن أهم ما تتمسك به، فهي سندهن الوحيد ولا تردن خسارة هذه العلاقة لأي كان، ثم إن السكن مع الأهل يعني البقاء تحت السلطة العائلية، فعيش المرأة غير المتزوجة لوحدها هو ضد القيم الاجتماعية. ما يستخلص من سماع هؤلاء النساء، محاولة التماشي مع الوضع القائم، وإستراتيجية لتسيير وضعهن والتحكم فيه والعيش بأقل الخسائر الممكنة، وعدم جلب مزيدا من الكلام لهن ولعائلتهن.

مشاريع المستقبل

كيف تنظر العازبات للمستقبل، هذا السؤال يدفعنا للتساؤل: هل لا تزال تفكر بالزواج أم صرفن النظر عنه، بين هذا وذاك جاءت إجابات النساء متأرجحة بين التفاؤل والتشاؤم حسب متغير السن، والمستوى الثقافي.

فهناك من تنظر إلى المستقبل بتفاؤل ولا تزال تؤمن بأن حظوظهن في الزواج لا تزال قائمة، فهن لا تؤمن بوجود مرحلة حياتية تدعو إلى اليأس، وخير دليل على ذلك بنات الجيران والقريبات اللاتي تزوجن في سن الأربعين أو أكثر، هناك أخريات من ينظرن للمستقبل من زاوية أخرى ويؤمنن بأنه لا يجب النظر للمستقبل من زاويته الضيقة وأن استثمار الذات لا يجب أن يكون من أجل الزواج والرجل فحسب. لكن يبقى ما تفكر به أخريات مستقبل غير واضح المعالم.